ملامح التحول في حركة الإسلام السياسي والتوجهات الغربية نحوها

د. محمد عويضة*

إن التصور الأساسي في نظرة الإسلام للآخرين يرسخ فكرة عموم الإنسانية، إنه يثبت وحدة الأصل الإنساني التي هي-كما نص القرآن-" من نفس واحدة ". إنه يقر بكرامة كل من تحدر من نسل آدم عليه السلام بغض النظر عن دينه أو عرقه، و يكرس - كنقطة بدء أساسية في العلاقة بين الأديان - الغاية في التصالح والتواد والتعاون في سبيل الصالح العام. وتبقى هذه النظرة قائمة طالما أن المسلمين غير مستهدفين بعدوان إذ أن الإسلام يحرم على أتباعه مبادأة الناس العداء، ومن هنا يجب أن يكون واضحا أن غاية الإسلام هي تعايش الأمم والحرص على العلاقات المتبادلة على أساس من السلام والصداقة. إن مفهوم الجهاد في الإسلام يأخذ مكانه ضمن هذا السياق الإنساني العام، إلا أن جزءا من هذا السياق الإنساني هو السعي لتحرير الإنسان-مسلما كان أم غير مسلم- من العبودية لضلالات المادة. و لأنه كذلك فهو ليس مجرد حمل السلاح للدفاع عن غاية، بل ان معناه أوسع من ذلك وأشمل محيط بكل المحاولات المادية و المعنوية التي تهدف إلى الارتقاء بالجنس البشري إلى مرتبة أعلى من السعادة والاكتفاء.

وتشهد العلاقة بين الإسلام والغرب لتشهد حقيقية قابلة للانفجار والتدمير الكبير، ومن البديهي وجود هذه الأزمة في ظل تراشق التهم ورسم "الآخر" منبعا للخطر والشرور. ورغم أن استيعاب المسلمين للغرب في تحسن -إذ أن الفضل يعود للأعداد المتزايدة من المسلمين الذين يتعرضون لثقافة الغرب وأدبه بل ويصلون حد الإعجاب والتقليد-، إلا أن نسبة الغربيين الذين يتعلمون اللغة العربية أو يدرسون الثقافة الإسلامية،

* عميد شؤون الطلبة ـ جامعة الزرقاء الأهلية.

وبالذات طبقة الصحفيين والسياسيين والاقتصاديين والمفكرين، لا تزال نسبة صغيرة، بل هي في تناقص مستمر.

إن الإسلام دين قد أسيء فهمه ، وأكثر الناس يتعرفون عليه من خلال التصرفات والسلوك المتطرف لبعض المسلمين. وهكذا فإن الصورة السلبية التي بدأت بالتشكل أيام الحملة الصليبية قد كرست بعد أن عززت طوال القرون الماضية بأشكال النزاع ،ومع سقوط الشيوعية حل الإسلام محلها وبات مصدر الخوف.

و قد قامت وسائل الإعلام الغربي، بقصد أو بجهل، باستغلال جهل الرأي العام الغربي بالإسلام وتاريخه، ونجحت أو كادت في عزل المسلمين وتصوير الإسلام خصماً للغرب وحضارته.

ومع أنه لا يمكن اعتبار المسلمين مسؤولين عن أي عمل أو تصريح "لا مسؤول" أو إرهابي أو عدائي يشوه صورة الإسلام إلا أن الإعلام الغربي ما فتئ –منذ اندلاع الثورة الإيرانية– يغذي الرأي العام بصور مشوهة توجد الرفض و الخوف في النفوس مما يربط الإسلام بالخطر ويظهره كما لو أنه يقف ضد القيم السامية و مطامح الإنسانية في تحقيق السلام والتقدم والحرية والمساواة.

إن السلوك السلبي نحو الإسلام قد اعتلى منصة الدعاية و الإعلام ويمكن في الحقيقة رد ذلك إلى الجهل و التحليل الفلسفي والتاريخي المتذرع بأن الصراع مع الإسلام حتمية تاريخية واستراتيجية. ومثال صارخ على ذلك نظرية للدكتور صامويل هنتنغتون الأستاذ في جامعة هارفارد المصوغة في مقالة (صيف ١٩٩٣) في مجلة الشؤون الخارجية .FOREIGN AFFAIRS "بعنوان صدام الحضارات"، Clash of Civilization.

الصراع والتعاون :

إن الصراع، تماما كما هو التعاون والتفاعل، كان دائما يميز العلاقات بين الحضارات و الأديان والشعوب والقبائل، والقرآن يقر بحقيقة أن النزاع و التنافس إنما هما خصلتان طبيعيتان في التطور وموازنة القوى على صعيد الفرد و المجتمع و العالم.

إن القرآن الذي يدعو للجهاد و كذلك استخدام الوسائل السلمية في إرساء العدل والمساواة يدين العدوان والكبت و القهر، و يحذر من الوقوع فريسة الشهوة و الأنانية، بل إن القرآن يعترف بحق المقهور في الدفاع عن نفسه و المقاومة لردع الطغيان، ولكنه يحذر من اقتراف الظلم ؛ ويصرح القرآن بوضوح "إن الله لا يحب المعتدين" و "لا عدوان إلا على الظالمين". إن تعاليم القرآن في الواقع تشجع الناس على استشراف العدل، وعلى التعاون على تحقيق الخير و اكتشاف الكون و استغلال موارد الأرض في خدمة المصلحة الإنسانية التي تعد أسرة واحدة من أب واحد، خالقها واحد، وهو وحده يستحق العبادة. ولهذا يعترف الإسلام بالاختلاف و تعدد الأجناس والثقافات حقيقة من حقائق الحياة، كما يدعو إلى الاعتراف المتبادل و التعايش ؛ "يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"

إن الإسلام متفرد في اعترافه بالتعددية داخل حدوده وخارجها، وفي الداخل لم يعرف أنه قامت حروب دينية أبداً. وفي حين أن الإسلام ضمن لأتباعه حق الاجتهاد في النصوص القرآنية إلا أنه لا يعترف بكنيسة أو مؤسسة أو فرد كسلطة منفردة تتكلم باسمه أو تدعي تمثيله. إن اتخاذ القرار بالشورى هو من حق المجتمع كله، ولهذا فقيم الديموقراطية و التعددية السياسية والتسامح متناغمة تماما مع الإسلام. خارج المجتمع الإسلامي، يعترف الإسلام بالتعددية الدينية و الحضارية و يعارض استخدام القوة في نقل حضارة أو الإكراه في الدين . بل إنه يدين استخدام الدين لأغراض مادية بداعي الهيمنة.

من خلال النداء القرآني للإنسانية "يا أيها الناس" لا يسع المرء إلا تخيل مرحلة في التاريخ تقصر فيها المسافات و تتيسر الاتصالات و تزال الحدود و يتنقل البشر دون قيود أو محظورات في سعي للتآزر و التعاون .

إن عقيدة واحدة فقط، وهي تلك التي تؤكد أن الله واحد و منبع الأديان واحد و أصل الإنسانية واحد و أن الرب الذي يحكم الكون واحد، لقادرة على الانسجام مع عالم مفتوح و محكوم بقانون عالمي مبني على العدالة.

ومن وجهة نظر إسلامية ومع أخذ مثل هذه الحقيقة الكونية بعين الاعتبار في أن مصير الإنسان مشترك فإن المعيار هو السلام والتعاون و الاعتراف المتبادل. ليست الحرب أبدا هي المعيار، وبخاصة عندما تستثمر لاستبعاد الآخرين أو انهاء تعددية حضارية أو دينية أو عرقية. فإذن ما المعنى من الحديث عن صراع شرقي - غربي، أو إسلامي – مسيحي؟

إن الدلالة الوحيدة هي تاريخية حيث إن الحروب دارت في الماضي بين الإسلام و الغرب. بيد أن الحروب الداخلية في العالم الغربي القديم و المعاصر لم تكن أقل دموية أو مأساوية من الحرب التي دارت بين الغرب والأمم الشرقية. وفي المقابل قامت حروب دامية بين الأمم الشرقية، ولهذا فإنه من السذاجة تبسيط المشكلة أو تجاهل تعقيدها .

إن إصرار فريق ثالث (إسرائيل و اللوبي الصهيوني) على عزف لحن الصراع الشرقي الغربي أو الإسلامي الغربي لن يخدم فكرة السلام و التعايش. وسريعا بعد انتهاء كرنفال الحرب الباردة قام الذين جنوا معظم ثمارها –خوفا من تضييع ما اكتسبوه حتى تلك اللحظة– بترشيح الإسلام خطراً جديداً. ولضمان الحفاظ على التدفق المستمر للمساعدات و الدعم و لمراكمة الابتزاز قام مثيرو الكراهية و الفساد بزرع الخوف في قلوب الغربيين. إن الفريق الثالث يرافقهم تجار السلاح الذين ساءهم التراجع في أوضاع تجارتهم نتيجة انتهاء الحرب الباردة، في محاولتهم للحفاظ على أرباحهم، انضموا إلى من ذهبوا يبحثون عن عدو جديد هو الإسلام.

إن المشاعر المضادة للغرب في العالم الإسلامي لفي تزايد بسبب السياسة الازدواجية التي يعتقد أن الغرب يمارسها تجاه القضايا الإسلامية. ورغم التزام الغرب بحقوق الإنسان و الديموقراطية إلا أنه ومنذ سنة ١٩٤٥ قد ساند و حرض زعامات ديكتاتورية أكثر من تلك الديموقراطية في العالم غير الغربي. إن تأثير النظام العالمي الذي تقوده أمريكا اليوم على حقوق الإنسان في العالم الإسلامي ليس بحال من الأحوال أقل دمارا من النظام العالمي الذي ساد في الحقبة الاستعمارية . لقد أثبت قادة النظام العالمي الجديد –الليبراليون الديموقراطيون– لنا أنه ما لم تكن مصالحهم الخاصة في

خطر، كما في الكويت، فلن يخاطروا بشيء في سبيل الديموقراطية أو حقوق الإنسان. وليس ذلك فحسب بل إنهم يصرحون أن استقلال الأمم لا يعني أن لن يتدخلوا في الشؤون الداخلية لبلد ما إذا كان هنالك دليل على انتهاك حقوق الإنسان فيه، وبعبارة أخرى فقد أعطوا أنفسهم الحق في أن يكونوا الخصم و الحكم في سلوك الأمم و شعوب البلدان الأخرى.

وبينما تؤكد الحكومة الأمريكية أنها بطل الديموقراطية وحقوق الإنسان في الشرق الأوسط نجد أن الذين لهم نصيب الأسد من الوجود المادي و العسكري للولايات المتحدة في المنطقة هم أنفسهم أكبر منتهكي حقوق الإنسان . مصر هي إحدى الأمثلة على حكومة محلية تلقت عشرات البلايين من الدولارات من المساعدات الخارجية لأمريكا لأكثر من عقد، ولم تكن ظروف حقوق الإنسان فيها مطابقة أبدا للمعايير العالمية، بل انحدرت في معظم الأحيان إلى مستوى الانتهاكات الصارخة . و تستمر فيها الانتهاكات المبطنة لحقوق الإنسان مثل أحكام الطوارئ والتي لا تزال سارية منذ مقتل الرئيس السادات في أكتوبر ١٩٨١، أو فقر الحرية والانتخابات النزيهة دون أي بادرة للإصلاح.

إسرائيل المتلقي الرئيس لمساعدات الولايات المتحدة الخارجية في أي مكان في العالم، فرضت الأحكام العسكرية على مليوني مواطن فلسطيني في الضفة و قطاع غزة لمدة ٢٧ عاما دون أي احترام للمعايير الدولية لحقوق الإنسان. إن اتفاق أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية الذي تدعمه أمريكا بلا شروط لا يضمن بأي شكل من الأشكال وقف إسرائيل انتهاكاتها لحقوق الإنسان التي ما زالت في أوجها. ولا تزال إسرائيل تستقبل دعما أمريكيا ماديا و معنويا و سياسيا كاملا رغم سياستها الوحشية اليومية مع شعب جنوب لبنان ضحايا القصف الإسرائيلي اليومي الجوي و الأرضي.

إن الولايات المتحدة وحلفاءها الأوروبيين يدعمون اليوم كل ديكتاتوري في العام الإسلامي يدين لهم بالولاء ويعدهم برعاية مصالحهم. وفي بعض الدول تنتهك حقوق شعوب برمتها، ومع ذلك فحكومات تلك الشعوب تعد حليفة وصديقة بدون الديمقراطية وحقوق الإنسان في النظام العالمي الجديد .

إن ازدواجية المعايير تجاه متطلبات الديموقراطية في أوروبا الشرقية والعالم الإسلامي تشكل تناقضاً واضحاً في السياسة الغربية. في الحالة الأولى-أوروبا الشرقية- تلقت الحركات الديموقراطية دعما أوروبيا كاملا ليس لأن قيم الديموقراطية مقدسة بل لأنهم كانوا سلاحا فعالا في مواجهة التجمع الاجتماعي بقصد تفتيته. بينما في العالم الإسلامي أو حتى في العالم الثالث كله نجد أن الغرب لا يتحمس بالطريقة نفسها لدعم الميول الديموقراطية وحقوق الإنسان، لأن تشكل الديموقراطية في هذه الحالة عامل مساند للشعوب وموحد لها يهدد الديكتاتوريين الذين يرعون مصالح الغرب على حساب شعوبهم. ومن الواضح تزوير نتائج الانتخابات في تونس، أو سحق صناديق الاقتراع بالدبابات والمدرعات في الجزائر.

إن نفي الفائزين في الانتخابات الجزائرية إلى مخيمات الإبعاد في الصحراء لم تشكل خطراً على المصالح الغربية في المدى القصير ولذلك لا يعترض الغرب .

وفي الوقت نفسه ينظر المسلمون بألم وغضب عميقين إلى الموقف المنافق للغرب تجاه إبادة شعوب مسلمة بأكملها. الشيشان (الجمهورية السوفيتية سابقاً) مثل بوسنيا (الجمهورية اليوغسلافية سابقاً المطهرة عرقياً) هي أمة حكمها الإسلام في السابق، وهي تصارع البقاء في حملة انقضاضية متعصبة من قبل حاكم شيوعي سابق. إن الشيشان كالبوسنة تنتظر أن يحترم المجتمع الدولي " المبدأ الأسطوري في حق الأمم في استقلالها وتقرير مصيرها".

إن وضع النظام العالمي قد مثل حديثاً بوضوح عندما صرح الأمين العام للأمم المتحدة بطرس بطرس غالي مشيراً إلى أن الأحداث في الجمهورية الشيشانية يجب أن ينظر إليها على أنها أمر روسي داخلي، وهذا يذكر بموقفه من البوسنة عندما أخبر السكان العزل الجياع المحاصرين في سراييفو أن مأساتهم لم تكن شيئاً غير عادي " إن بوسعه تسمية عشرة أماكن في العالم تماثل وضع البوسنة أو تزيد سوءاً عنها.

العنف السياسي :

إن ظاهرة العنف السياسي التي تعم العالم العربي ليست شيئاً في جوهرها لكنها رد فعل على عنف الولايات المتحدة التعسفي، العنف قاد إلى خلق جو قمعي حيث يوجد نقص حقيقي في الحريات الأولية وإهمال تام لحقوق الإنسان، فالقوة تستخدم للحفاظ على الوضع الراهن ولإسكات المنتقدين وفي غياب حكم القانون، في مثل هذا الجو، لا يمكن اجتناب استجابة بعض الناس للقمع بأعمال العنف، وترد الأنظمة بتحريك قوات الأمن أو الجيش لسحق المتمردين وإحباط مخططاتهم، ومع الزمن تصبح هذه الدائرة المفرغة من العنف والعنف المقابل نمط حياة. ويركز دائرة العنف سلوك الغرب الذي يدعم –بغير شروط– هذه الأنظمة القمعية تحت ستار محاربة التطرف أو الحفاظ على المصالح الحيوية. ويحتاج الغرب إلى أن يدرك أن هذه الظاهرة تعزى أيضاً إلى ما يعتبر محاولات غربية مستمرة في فرض الثقافة الغربية ونماذجها على المسلمين.

إن الحوار واحترام حقوق الإنسان هما أنجح الأسلحة لمقاومة الراديكالية . وإن العديد من الحركات الإسلامية كتلك التي في تركيا و الباكستان وماليزيا والكويت والأردن قد لعبت بفضل الديمقراطية – دوراً هاماً في تهميش الاتجاهات المتطرفة، وفي ارتكاب العنف من قبل الأفراد الراديكاليين .

التقديرات المستقبلية :

لقد آن الأوان لأن يفهم الغرب طبيعة الأزمة. إن المسلمين الذين يصارعون لأجل الحرية والكرامة في أزمة، والعالم العربي يعيش حالة سياسية حرجة ووضعية إطباق نتيجة لاستقطابه وتردده بين الإسلاميين والأنظمة المسيطرة المدعومة من الغرب، وبذلك شلت الحياة السياسية وتحولت إلى برنامج أمني .

إن الصراع الذي نشهده في معظم البلدان العربية والإسلامية هو بين الشعب الذي يقاتل من أجل الحق – الذي منحه إياه الله – في الحرية والمال والكرامة والتعليم، وبين الأنظمة التعسفية التي ترفض الإصلاح أو الديمقراطية، ومن غير شك سيفوز الشعب بهذه

الجولة من الصراع، ورغم كل شيء فالإنسان مخلوق ذكي قد يقهر ويرغم على قبول مالا يقبل، لكن ليس للأبد، وقد قدمت التجربة الشيوعية أفضل شاهد. إن معظم الحكومات القائمة أفلست في مجال الفكر وتقف على حافة الإفلاس في مجال الاقتصاد.

والمشروع البديل الذي يجذب الجيل الجديد ويمثل آماله في العدالة والكرامة والمساواة والحرية والازدهار والاستقرار هو المشروع الإسلامي. اليوم يقاوم هذا المشروع وينكر عليه الوصول إلى السلطة من قبل سلطات القمع المحلية المدعومة من الغرب.

وعلى كل حال فالعنف وحده أضعف من أن يقف في مواجهة الحركات الشعبية طويلاً. وعما قريب الإسلاميون قادمون.

السؤال هو: ما هو موقف الديمقراطيات الأوروبية تجاه التطور في المنطقة العربية؟ هل سيكونون مخلصين للمبادئ التحررية ويدعمون العملية الديمقراطية في العالم العربي حتى لو أدى ذلك إلى وصول الإسلاميين للسلطة. أم انهم سيلتزمون الموقف المتحيز، أم هل سيلعبون الدور الغاشم أكثر ويجرون المنطقة إلى حالة حرب أهلية لحظة أن ينفجر البركان ويفلت زمام الأمور . عندها سيجد الديمقراطيون الغربيون أنفسهم غير قادرين على فعل شيء يحفظ مصالحهم .

المشكلة الحقيقية هي كيف نقنع العلمانيين المزعومين ومساندهم في الغرب بأن لا يطبقوا معايير مزدوجة، وأن لا يتآمروا على الديمقراطية حين توفر للإسلاميين فرصة الوصول إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع . لقد أثبتت التجربة أنه حين يعطى الإسلاميون الفرصة لاستيعاب قيم الغرب العصرية كالديمقراطية وحقوق الإنسان فإنهم يبحثون بإخلاص عن مثيلاتها في الإسلام ويرعونها وينعشونها تماماً كما فعل الغربيون من قبل حينما زرعوا مثل هذه القيم في تربة أقل خصوبة من الإسلام بكثير.

هل سيستمر الغرب في وصف للإسلام على أنه جامد وراديكالي وقاتل وبائس، أو أنه مهدد لمصالحه وللسلام والحرية والتقدم وحقوق المرأة وحقوق الأقليات وكل القيم السامية ؟

هل سيستمر الغرب بصم آذانه خشية سماع الأصوات الناصحة مثل صوت الأمير تشارلز وعدد من وجهاء المثقفين الغربيين الذين يطالبون بإخلاص لإعادة اكتشاف الإسلام والتعلم من نظرته العالمية لهذه الحياة الدنيا والآخرة، عن المادة والروحانية، عن المرئي وعن الغربي ؟

في عالم انقلب بثورة الاتصالات إلى قرية صغيرة، هل سيستمر الغرب بالتعامل مع الآخرين على أساس تقسيمهم إلى غربيين وشرقيين لا يلتقون أبداً ؟

رغم استمرار السلوك السلبي الغربي تجاه الإسلام. هناك مؤشرات إيجابية بأن علاقات أفضل ممكنة في المستقبل، ونأمل أن هذه المؤشرات ستتزايد وتجلي نفسها بوضوح أكبر، ومن غير شك فإن هذا الاجتماع يشكل خطوة مهمة أخرى في الطريق السليم نحو إيجاد حوار بناء في السعي للتعاون والتسامح والفهم المتبادل .